بنكهة الخبز اليابس

هنديا

يا حياة عديني بحياة أو امنحيني صك غفران على ذنب لم يقترفوه، بل امنحيني راحة أتذوق طعمها، فيمحو مذاقها المر العالق بلساني، فكلما كبرت كلما اتضحت نكهته المختلطة بمرارة الأيام، لا أعلم حقًا إن كانت نكهتي من اختلطت بمرارة الأيام، أم أن الأيام هي من امتزجت بنكهة الخبز اليابس..؟

.....

تجلس في المساء تتناول طعام العشاء مع زوجها وبناتها حاضرة هي وغائبة ...

حاضرة بجسدها غائبة بعقلها تمامًا....بل تائهة وسط صخب أحداث يومها المتزاحمة بداية من تلك الجملة التي يتردد صداها في أعماقها لينتهي عند أذنيها:

- هاج...هن...هيا... أين أنتِ يا ابنتي ...؟

كعادتها تقحم اسميهن مع اسمها.. ويا ليت الأمر فقط كذلك بل يسبقانه أيضًا وكأن كل شيء في هذا الكون يتعمد استفزازها ..!!!

بصمت رهيب تناقض مع كل ما يعتمل بداخلها وما يدور على لسان عقلها أنزلت نفس الحقيبة الكبيرة التي أفرغت محتوياتها منذ يومين فقط من أعلى خزانة الملابس، وضعتها على الفراش و فتحتها ببطء، مع كل قطعة ملابس تطويها وتضعها داخل الحقيبة تضع حجرًا من صمت وأخرًا من نار على قلبها المكلوم ...

قطعة تلو قطعة يوازيها حجر وراء حجر سنوات طويلة ربما لم تنجح في أي شيء خلاف هذا السور الذي حجب قلبها وما يكمن فيه عمن حولها، وهل هناك من يجيد الكتمان أفضل منها..!!!

حملت الحقيبة بيد واحدة غير عابئة بثقلها، فعلى كاهلها ما هو أثقل بكثير، وضعتها بالصالة الخارجية واتجهت لتجلس بجوار والدتها التي خط الزمن خطوطه بإتقان على ملامح وجهها الصغير .

عينان شاخصتان في الفراغ وأطراف مجمدة كحال قلبها وهي تطلب منها أن تنتظر لثوان حتى تحضر لها سيارة أجرة من موقف السيارات الصغير بالقرية، لكن والدتها أخبرتها أن زوج شقيقتها سيرسل لها سيارته بالسائق ليقلها إلى بيتهم في المدينة، كما أنها طلبت منها أن تعود لبيتها ربما يكون زوجها عاد من العمل، وبناتها وحدهن منذ الصباح ....

ضحكت ضحكة ساخرة خافتة سرعان ما تحولت إلى ملامح مبهمة لا تعبر عن شيء، وبصوت هادئ طمأنتها أنه لو عاد زوجها من العمل بالفعل لأرسل إليها إحداهن...

تنهدت تنهيدة شقت صدرها دون أن تغادر شفتيها وهي تحمد الله أن أمها أخيرًا تهتم بشيء يخصها حتى إن كان لا يمثل لها قيمة حقيقية تمثل اهتمام انتظرته منها لسنوات وسنوات ....

تذكرت عندما سألتها عن مدة مكوثها لدي أختها..فأخبرتها ببساطة أنها لن تعود قبل انتهاء العام الدراسي، محدثة إياها عن المشكلة التي حدثت معها بسبب جليسة الأطفال وما فعله زوجها بعدما علم من الطفل نفسه أن الجاحدة عديمة الرحمة كانت تقوم بعقابه وحبسه في الشرفة مع حرمانه من الطعام.

عندها تحدثت لأمها بوجوب تفرغ شقيقتها لابنها الوحيد ولا تأتمنه هكذا مع أشخاص غرباء، بل اقترحت عليها أن تطلب منها التقدم بطلب إجازة من عملها بالنيابة الإدارية لأن طفلها بمرحلة يحتاج لرعايتها هي دون غيرها حتى وإن كانت جدته من سترعاه ..

فوجئت بصياح أمها غير المبرر وهي تعترض على اقتراحها المجحف كما وصفته ...وكيف تريد لشقيقتها بعد كل ما عانته طوال أربع سنوات بكلية الحقوق وبعد كل ما وصلت إليه أن تتخلى عن حلم حياتها الذي حققته أخيرًا بمثل تلك البساطة، لقد أوشك نظرها علي الضياع بسبب هذا الحلم وهي منكبه على الكتب والمراجع ليلًا نهارًا .

قبضت يديها وقتها بتوتر، ودت أن تصرخ بوجهها، تسألها وأين حقي أنا فيكِ؟ أين أنا من كلتاهما لقد أصبحت الأخرى طبيبة وتزوجت زيجة لا تقل عن شقيقتها من حيث الثراء والمركز الاجتماعي فما أن أنهت دراستها حتى تقدم لها أستاذها الجامعي بطلب الزواج غير مهتم حتى بمستواهم الاجتماعي المنعدم تقريبًا....

تلك الصغيرة مدللة أمها هاجر، لم تكتفِ بما نالته من الدنيا تود أن تستأثر حقها فيها، منذ أن أنجبت التوأم وهي تتعلل بثقل المسؤولية لكي تحتكِرها لديها لخدمة أطفالها.

أين هي حقًا منهن وأين حقها في أمها؟

(حتى نفسها تسخر منها... هي لا حقوق لها منذ البداية)

مجرد ربة منزل بدلًا أن تحمل حتى شهادة ابتدائية حملت الكثير والكثير من الأعباء وكأنها قررت الالتصاق بها طوال سنين عمرها حتى أصبحتا

متلاحمتين، بالإضافة إلي ذلك أيضًا لقب (زوجة عامل البناء وأم البنات) ...

كم تمقت هذا اللقب، كما تمقت نظرات الشفقة بأعين أخواتها وأزواجهن وهم يمُنّ عليها بفضلاتهن، حتى الحياة استكثرت عليها أن تنجب صبيًا...، صبي يحملهما هي وزوجها حينما يشتد عوده ويعوضهما سنوات الشقاء، لكن كتب عليها أن تدور في تلك الساقية حتى الممات، كما حكم عليها أن تكون قاب قوسين فهل هناك ضَيْم أكثر مما هي فيه؟

نفس حوارها الدائم الساخط على كل شيء، ونفس الصراع مع نفسها الذي كاد أن يؤدي بها إلى الجنون....

حضن أمها وهي تغادر بالصباح بدلًا من أن يريحها زاد من آلامها، بالرغم من أنها نجحت بمواراة مشاعر القسوة من عينيها، لكن قلبها لازال ينبض بها، لطالما نجحت في إخفاء مشاعرها عن الآخرين منذ صغرها، وتلك السيدة العجوز الطيبة بالفطرة ترجمت صمتها الدائم علي أنه رضي، غافلة عن تشنج قبضتيها الصغيرتين والعض على باطن خدها باستمرار ....

حتى حينما سلب منها حق التعليم رغم تفوقها وتم إقصاؤها من المدرسة الابتدائية الصغيرة بالقرية بناءً على طلب والدتها ما كان منها إلا بكاءً صامتًا...

رغم صمته إلا أنه حمل ألف جملة عتاب وألف جملة اعتراض على واقع اختار تلك الصغيرة قربان نجاة لأختيها، وما كان من والدتها إلا بضع جمل ألقتها، لم تكن لتفهم معناها حين ذاك، لكن الآن كل حرف فيها حفر على جدران روحها المتهالكة بحبر من القهر والمرار، لن يمحى أبدًا بمرور السنوات.... لقد سألتها إحدى بناتها يومًا لماذا لم تكمل تعليمها كخالتيها؟

لم تجد الإجابة المناسبة فنسجت قصصًا وهمية بأنها لم تكن يومًا من

محبي الكتب ولا التعليم حتى لا تسخط الفتاة على جدتها.

وسط كل هذا التزاحم الموجع بداخلها تجد السنوات تتراجع و تتراجع لتصل... لقبل ستة وعشرين عامًا..... و أمها تسألها ببشاشة:

- ألا تودين أن تصبحي أما صغيرة للصغيرتين، تجالسيهم وتشرفين على أمور البيت حتى أعود من عملي.

فسألتها الصغيرة:

- لماذا تعمل عند الأثرياء من أهل القرية وتقوم بالمهام المنزلية بدلًا عنهم؟

تتذكر سؤال إحدى معلمات فصلها (أنتِ ابنة عفاف الخادمة؟)

صمتت حينها عن الإجابة لأنها لم تكن تعلم معنى كلمه خادمة...؟

أسئلة كثيرة كانت تلقيها بين الحين والآخر على أمها دون أن تحظى بإجابة تريحها، كل ما كانت تحصل عليه احتضان أمها لكتفيها الضارعين ونظرات الشفقة بعينيها لم تعلم بما تجيب عليها... هي صغيرة فلن تستوعب لكنها كانت ترى أقرانها يعيشون حياة أفضل منها بكثير، إن قيل عن حياتهم حياة...

أم أرملة في ذروة شبابها لا تملك من متاع الدنيا شيء، سوى ثلاث فتيات صغار تحمل صغيرتهن وتجر خلفها اثنتين بثياب رثة أهلكها الزمن وطمث لونها غبار الرحيل من بلد إلى أخرى، إلى أن استقروا بهذه القرية منذ سنوات ومع مساعدات أهل القرية بدأت تندمج معهم، أجرت بيتًا ريفيًا صغيراً بدأت تعرض مساعدتها على سيدات القرية مقابل ما يتفضلون عليها بأجر بسيط، طعام تبقى لديهم أو ثياب لم يعودوا يحتاجونها حتى صارت مهنتها ومصدر رزقها.

- هيام...ربما يا صغيرتي لن تفهميني الآن ولكن أريدكِ ألا تخجلي يومًا من عملي هذا...العمل مهما بلغت بساطته لا يعيب صاحبه مادام شريفًا.

جملة أخرى علقت بجزء من ذاكرتها مع شريط ذكريات عمرها، قارب الثلاث عقود لم تنسَ يومًا ولن تحتاج لأي موقف يذكرها، فالأمر أصبح كالمرض المزمن يلازمها.... مشاهد مؤلمة متلاحقة تجلدها بلا رحمة، لتقف من جديد أمام صدى صوت لطفلة صغيرة عمرها سبع سنوات متذمرة وأمها تنتقي لها بعض قطع الخبز من تلك المحرمة القطنية .

- إنه يابس جدًا يا أمي أعطني من طعام هند وهاجر.

- يا حبيبتي أنتِ الآن فتاة كبيرة يجب أن تطيعي أمكِ، طعام هند وهاجر لا يكاد يكفيهن، مازلن صغيرات لا يستطعن مضغ هذا الخبز، بينما أنا و أنتِ نستطيع.

لتعقد الطفلة حاجبيها وتلتزم صمتها المعهود، فتقترب منها الأم مبتسمة بحزن قائلة:

- ما رأيك أن أغمر لكِ الخبز في الماء ثم ألفه قليلًا في قطعة قماش حتى يلين وتستطيعين تناوله.

تعترض سريعًا على هذا الحل البديل لتقول بنزق:

- لا يا أمي دعيه، لا تغمريه في الماء سأتناوله هكذا أفضل من ألا أتناوله نهائيًا.

لتقوم الصغيرة بمضغ قطع الخبز اليابس متحملة جروح حلقها وفمها الصغير، كما تحملت وقوفه المتكرر أثناء طريقه لمعدتها الخاوية لتعالج الأمر بشربة من ماء.

أجفلت على صوت ابنتها الكبرى لتخرجها من تلك الذكرى الأخيرة التي تصاحبها في تناول كل وجبة طعام لتطلب منها ببراءة:

- أمي من فضلك ناوليني قطعة الخبز تلك.

نظرت في سلة الخبز ومدت يدها لتناول ابنتها قطعة، لكن الفتاة هزت رأسها لتشير إلى السلة مرة أخرى:

- لا يا أمي أعطيني الأخرى التي في الأعلى تلك اليابسة قليلًا.

اعترضت سريعًا وكأنها صدمت من طلب الفتاة، اقتربت منها واحتضنتها وسط ذهول أخواتها لتقول لها والغصة في حلقها:

- لا يا حبيبتي لا تتناولي خبزًا يابسًا أبدًا ..... أبدًا.

انفلتت الفتاة من حضنها وهي تومئ بالإيجاب لتسأل أمها:

- أمي متى ستعود جدتي من المدينة؟
- لا أعلم يا عفاف ولكن حتمًا ستعود....أتمنى فقط أن تعود قبل فوات الأوان.

تمت بحمد الله.